

التواصل الاجتماعي في المجتمع الافتراضي: نحو الفوضى والتشظي

Social Communication in a Virtual Society: Towards Chaos and Fracture

د: علي منذر محمد دقاسمة*

الملخص:

أدى التواصل الاجتماعي في البيئة الافتراضية عبر وسائل الاتصال الجديدة إلى تشكل معالم جديدة لهذا المجتمع فقد أفرز أنماطا تواصلية جديدة اتسمت بدينامية متقلبة ومتسارعة بل اتصفت بالتعقيد والاضطراب، محدثة فوضى خلقة يصعب معها معرفة مدى تأثير الرسائل المتداولة على المتلقي بل يستعصى التنبؤ بإرجاع الصدى كما اتسمت أيضا إلى جانب الفوضى بتشظي سلطة القائم بالاتصال بهذا الفضاء التواصلي سواء تعلق الأمر بسلطة المعرفة أو سلطة الرقابة حيث سقط حارس البوابة متيحاً للنشطاء الافتراضيين امتلاك المعرفة بشكل علني وتداول المعلومة بشكل تخطي الحدود الجغرافية والمحددات الزمانية معلنا عن نهاية فويا المكان والزمان.

الكلمات الدالة: التواصل الاجتماعي/المجتمع الافتراضي/الفوضى/ التشظي

Abstract:

Social communication in the virtual environment through the new means of communication has led to the formation of new features for this society, as it has produced new communication patterns that have been characterized by volatile and accelerating dynamism, but characterized by complexity and turmoil, creating creative chaos with which it is difficult to know the extent of the impact of the messages circulating on the recipient, but it is also difficult to predict the echo's return as it was also characterized. In addition to the chaos, the authority of the communicator is fragmented by this communicative space, whether it comes to the authority of knowledge or the authority of control, where the gatekeeper fell, allowing the virtual activists to possess the knowledge openly and circulate the information in a way that exceeds the geographical boundaries and temporal limitations announcing the end of the phobia of space and time.

Key words: Social Communication/ Virtual Society/ Chaos/ Fracture

*- علي منذر محمد دقاسمة، باحث مختص في الإعلام الإسلامي، المملكة الأردنية الهاشمية.

يتأسس المجتمع الافتراضي على ”الاتصال الالكتروني التفاعلي بين عدة أفراد يشتركون في نفس الأفكار والأنشطة“ (A.Beghetto Ronald.2001.P 23) داخل غرف الدردشة، ويتم ذلك من خلال تبادل الحديث والمشاركات عبر الكمبيوتر، وهذه التفاعلات ”لا يشترط أن تكون وجهها لوجه، إذ يمكن أن تتم بدخول أكثر من طرف في تفاعل آني عبر الانترنت... كما يمكن أن تحدث تفاعلات اجتماعية في لحظات غير مترامنة عن طريق البريد الالكتروني“، فمن شأن هذه التفاعلات صنع ثقافة جديدة لهذا المجتمع الافتراضي إذ ”أن التفاعل المستمر على الانترنت هو الذي يصنع الثقافة بظهور أنماط السلوك الرقمي، وتمثل الأفراد في مجتمعاتهم بقيمهم ومعانيهم في الظاهرة الاجتماعية الرقمية، فالاتصال بين المستخدمين بشكله المجرد لا يصنع المجتمع الافتراضي، بل الطقوس الضالعة والمعمول بها في الاتصال هي التي تبنى المجتمع كثقافة لها مقوماتها المحددة“¹. (علي محمد رحومة ، 2008، ص130).

فالحديث عن ثقافة المجتمع الافتراضي، يستوجب منا الوقوف عند ما ينتجه هذا الأخير من الرأسمال الفكري المؤثر على الواقع المعاش، أو ما يسمى ”بالرأسمال الاجتماعي الافتراضي على حد تعبير بيتمان Putnam“ (Bowling Alone: 1995.p 65-78) ، فمن خلاله أعاد المجتمع الافتراضي صياغة معنى المجتمع واستطاع أن يقلص من حجم المجتمعات الحقيقية إن لم نقل أنه أحدث ثورة جذرية في النماذج التواصلية بين الأفراد، تميزت بأخبار الحدود الجغرافية والعرقية والقبلية التي ظلت تتشكل منها الجماعات والمجتمعات، إذ جمع بين الصداقات الواقعية والصداقات الافتراضية، كما أتاح ”فرصة للتواصل ليس فقط في إطار السياقات المحلية ولكن على الصعيد العالمي ، فأمام هذا الواقع تبرز إشكالية البحث كالاتي: ما هي طبيعة التواصل في البيئة الافتراضية؟ والتي تتفرع عنها بالتساؤلات الآتية:

1. كيف تمكن هذا الرأسمال الاجتماعي الافتراضي من تغيير النماذج التواصلية؟
2. كيف تحول التواصل الاجتماعي من حالة النظام إلى الفوضى الخلاقة؟
3. كيف تخطى القائم بالاتصال رقابة حارس البوابة وأعلن تمرد عن سلطته الرقابية؟
4. كيف غيرت البيئة الافتراضية احتكار المعرفة والمعلومة؟
5. كيف انعكست هذه التحولات الجذرية على طبيعة التواصل الاجتماعي بالمجتمع الافتراضي؟

6. ما هي تجليات الفوضى والتشظي في السيرورة التواصلية الافتراضية؟

المحور الأول: التواصل الاجتماعي من النظام إلى الفوضى الخلاقة

1- نحو فهم لنظرية الفوضى:

وردت تعريفات متعددة لمفهوم **Chaos الشواش** منها أن الشواش يعني "الفوضى والتشويش والاختلال الكلي، كما تعني حالة التشويش المطلق والتي منها بدأت الأشكال كحالة أساسية في الكون وفقا للأساطير الإغريقية، وهو يمثل حالة اللانظام في الفراغ ومنها انبعثت كل الأشياء" (أسماء نيازي طاهر، 2010، ص802)، كما تعني كلمة الشواش "العماء"، وهو مصطلح لاهوتي جاء في سفر التكوين بمعنى خليط مضطرب من العناصر الكونية التي منها تشكل العالم ويطلق على كل ما هو ليس مرتبا ولا منسقا"، (المعجم الفلسفي، 1979، ص128)، ولقد تم تعريب Chaos إلى مفردات عديدة الفوضى الاضطراب الشواش الكيوسيسية والعماء.... إلا أن المفردة التي تم تداولها بشكل واسع في الأوساط العربية هي كلمة الفوضى، وتعود جذور نظرية الفوضى عندما "قدم هنري بوانكاريه **Henri Poincaré** عالم الرياضيات بجنه في العام 1890م، وبين أن قوانين نيوتن لا تقدم أي حل لمشكلة الأجسام الثلاثة، أي كيفية التنبؤ بحركات الشمس والأرض والقمر، ووجد أن تباينات طفيفة في الشروط الابتدائية تحدث تباينات هائلة في الظواهر النهائية وتتحدى حالة التنبؤات... وقد أحدث البحث الذي توصل إليه بوانكاريه نتائج ايجابية على إبداع نظرية الفوضى" (أسماء نيازي طاهر، 2010، ص802-803).

بدأت نظرية الفوضى أو الشواش بالظهور "سنة 1960، عندما كان خبير الأرصاد الجوية **Edward Lorenz** يستعمل الحاسوب في محاكاة ظروف الطقس المتغيرة، لكي يستطيع استقراء أحوال الجو بشكل أفضل، وقد كان يدخل معادلات مختلفة ليحاكي الأحوال الجوية، ثم يرى ماذا يحصل عندما تتفاعل هذه الظروف فيما بينها وفي إحدى الحالات أراد **loranz** أن يتفحص جزءا من المخطط البياني بتفاصيل أدق، فكرر دورة الحاسوب ولكن النتيجة كانت هذه المرة مفاجئة عن المرة السابقة، رغم أنها كانت ذات البيانات السابقة. وسرعان ما تأكد **loranz** أن تغييرا صغيرا في المعطيات الأولى لأحوال الجو، يمكن أن ينتج عنه تغيرات ضخمة في أحوال الطقس الجوية" (جامس غليك، 2008، ص31). وهذا ما أكدته بعد ذلك خبراء الفوضى بأن "فروقات صغيرة جدا في الظروف الأولى للنظم تسمى بالعامل، يمكن أن تتضخم إلى فروقات كبيرة جدا مع مرور الزمن. وعرف هذا العامل فيما بعد باسم تأثير الفراشة

The Butterfly Effect “ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 41) . فتم تشبيه هذا العامل بضرابات جناحي فراشة، إذ أن ضربة جناح واحد للفراشة اليوم، تنتج إعصارا وسلسلة من الاضطرابات لتتحول من عناصر محلية صغيرة إلى حراك يشمل القارات “ (جاميس غليك، 2008، ص 37) .

وقد عرف Stephen Kellert نظرية الفوضى بأنها ”دراسة نوعية السلوك غير المستقر واللا دوري في النظم الدينامية الحتمية واللاخطية“ (مؤيد الساعدي، 2014، ص 29) ، في حين ذكر Cornish أن كلمة فوضى ”تشير ضمنا إلى العشوائية والتصرف الذي لا يمكن التكهّن به، أما نظرية الفوضى فقد عرفها بأنها تصرف قدري معقد إلى درجة يبدو وكأنه عشوائي، وتعالج تصرفات غير عادية للنظم غير الخطية التي يبدو من الممكن التكهّن بها“ (Cornich EF , p 108 , 2007 ، وقد عرف كل من Fitzgerald و Eijnatten نظرية الفوضى بأنها ”العلم الذي يصف ويشرح سلوك النظم المعقدة والدينامية أو الحركية واللاخطية بعيدا عن نظم التوازن“ ، Eijnatten .F M.Van 2004, p 418, (.)

نخلص من خلال التعاريف السابقة لنظرية الفوضى إمكانية تحديد بعض الجوانب الأساسية لهذه النظرية، منها دراستها وتفسيرها للنظم التي تبدو غريبة وتوصف بأنها عشوائية وضوضاء، ولا يمكن توضيحها بالنماذج التقليدية والتي لا يمكن التنبؤ بنتائجها على المدى الطويل أو القصير، حيث تتضاءل نسبة التوقعات بشكل كبير. كما أن مصطلح الفوضى ”لا يعني اللانظام بل على العكس، فهو يمثل خاصية من خصائص النظام والتي تسعى إلى اختراع لغة جديدة للنظام، لذلك فإن نظرية الفوضى أصبحت مفيدة علميا ليس بقدر مساهمتها في دعم النظام ولكن بقدر قدرتها على توليد أفكار جديدة أيضا“ (أسماء نيازي طاهر، 2010، ص 802) .

لقد استخدمت هذه النظرية في الآونة الأخيرة على نطاق واسع في مجال العلوم الطبيعية، كما بدأ تطبيقها على العلوم الاجتماعية، فما ينسحب على الظواهر الفيزيائية من قوانين لفهم جغرافيتها ورصد تغيراتها وسلوكياتها، نراه ينسحب كذلك على الظواهر الاجتماعية، اعتبارا لكون طبيعة التواصل الاجتماعي في المجتمع الافتراضي صار تتصف باللاخطية واللاتوازن، وتكتسي من التركيب والتعقيد ما تختص به النظم الفيزيائية الكبرى، لذا تعد نظرية الفوضى إحدى المداخل الممكنة لتحليل شفرات التعقيد بالنظام الإعلامي الجديد، وتحليل حركية مجتمعه الافتراضي المتسارعة والمضطربة. فالأمر الذي يسترعي اهتمامنا هو ضرورة فهم هذا الواقع الافتراضي الذي بات من الصعب التنبؤ بتغيراته واتجاهاته، وملازمة أشكال واتجاهات التواصل الاجتماعي في ظل هذه الفوضى الخلاقة.

2- تجليات الفوضى الخلاقة في التواصل الافتراضي:

إن شبكات التواصل الاجتماعي، ”مهياة لحدوث الفوضى لاعتبارها نظاما ديناميا معقدا تحدث داخلها سلوكيات غير منتظمة وغير مستقرة، بل إن عناصرها المادية والرمزية مولدة لمثل هذه السلوكيات. فالفوضى حينئذ تظل خاصية من خصائص هذه البيئة الحتمية اللاخطية، التي أصبح من العسير التحكم في ديناميكيتها والتنبؤ بحالاتها المستقبلية“ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 11).

فالتعقيد هنا يمس منظومة التواصل الاجتماعي في طبيعتها أولا أي في بنيتها التحتية ثم المعرفة المتداولة وتأثيراتها على المتلقي ثانيا، سواء كان فردا أو جمهوريا فحالة فوضى مزدوجة ”فوضى في السماء يجسدها الحضور المتنامي لأقمار الاتصالات، والأقمار المتحركة وأقمار المراقبة والرصد، وفوضى على الأرض تتلوها الفضائيات ويغذي أطوارها الفضاء اللامتناهي لشبكة الإنترنت، والأخطر من ذلك كله، فوضى المفاهيم والمصطلحات المتزاحمة مع فيضان من التدني اللغوي أدى إلى تراجع مقاييس الجودة والإبداع“ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 24).

فنظام التواصل عبر الإنترنت دينامي لاخطي، يصعب معه ”تحديد المحددات الأولى المثيرة لسلوك ما أو لحدث غير متوقع، ورصد جميع تفاعلات النشاط الافتراضيون في منظومة تشمل ست عناصر، وضعها رومان جاكوبسون Jakobson في تحديده للنموذج التواصلية، وهي المرسل والرسالة والمتلقي والقناة والسياق واللغة“ (Michael Buhler, 1974, p38) ومن ثم استحالة توقع ردود أفعالهم إزاء مضمون الرسالة التواصلية، لتسارعها في الزمن إن لم نقل إزاء كم هائل من المعلومات والرسائل المتبادلة، كما يصعب أيضا ضبط مسارات هذه العملية التواصلية وحدودها، تلك هي حالة فوضى في نظام الإعلام الجديد.

وبشيء من التفصيل تمثل لهذه الفوضى بالفوضى الافتراضي أثناء بناء الواقع وتصويره، فإذا كان لكل مستخدم تمثل لهيئة الخطاب الذي ينتجه أو الخطاب الذي يستقبله، وحزمة من الأدوات البلاغية المترجمة لحالة التمثل، وسياق موضوعي وآخر ذاتي ونفسي يكيّفان طبقات بناء المعنى ودوائر التفاعل ورجع الصدى، وإذا علمنا أن الرسائل والنصوص الفائقة الحارية في فلك الويب تدخل في علاقات بعضها ببعض، وتمارس تأثيرات لا حصر لها على بناء المعنى وقراءة وإنتاجها، وإذا أدركنا السرعة اللحظية الفائقة لعمليات إرسال المضامين وتبادلها في الفضاء السبيرياني تبين لنا حجم المتغيرات الهائل في التواصل عبر شبكة الانترنت بوصفها نظاما لا خطيا، يبدو من غير الممكن الإمام بجميع أجزاءه الصغرى على وجه الخصوص“ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 24)، مما يجعل ”توقع الأحداث بدقة أمرا مستحيلا، هنا بالتحديد تتضح حقيقة

الفوضى في عجز الإنسان أولاً على الإمام بجميع العناصر والأحداث المؤدية لحدوث الحدث الكبير، واستحالة معالجة بنيتها ودلالاتها وسياقاتها في تشابكها ببعضها“ (Michael Buhler, 1974, p38) .

فالإعلام المؤسساتي الذي تنتجه المؤسسات بأصنافها المختلفة ” منظمات عالمية جمعيات مؤسسات حكومية ...، ظل يقابله الإعلام بصيغة الفرد كالمدونة أو المفكرات الالكترونية الشخصية، والتي يتحدث فيها الأفراد عن مسائل ذاتية حميمة أو عامة“ (صادق الحامي، 2006، ص 3-4)، والرسائل المبنية ” بدأ يغمرها تدفق فائق لرسائل متحررة من ضوابط التحرير والكتابة، والحرية النسبية تقابلها اليوم حرية مطلقة تسري وسط فضاء سيبرني، والموضوعية تراجعت أمام استفحال مظاهر الذاتية المفرطة، والحياة الخاصة، احتلت صدارة عرض الأحداث في الإخبار وغير الإخبار،“ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 146)، والجمهور المتجانس ” بدأ يتشظى تدريجياً إلى طوائف وعشائر بلا حدود، كلما ازدادت، اضطرت بازدياده الأهداف وأصابتها الفوضى. فالفوضى، مثلما أشرنا في ما سبق، ليست من طبيعة افتقار النظام لقوانين العمل والنشاط، ولا هي متصلة بتشابك الواقعي والافتراضي في هندسة النظام الرقمي الجديد، إنما هي وليدة ظاهرة كمية، الأولى من نوعها في تاريخ التواصل البشري، نفسرها بالعدد الهائل للمستخدمين لوسائط الإعلام والاتصال، استخدام يعبر كل الاتجاهات وبأعداد هائلة ومتزايدة ينتجون ويتبادلون المعلومات بمختلف أصنافها، ويسهمون في التأثير في البناء الاجتماعي للسلوك” . (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 40).

فإذا أصبح بإمكان كل العالم ” أن ييئ ويستقبل على نحو جماهيري، أي على نحو تكون فيه وسائل الاتصال الجماهيري، ووسائل اتصال جماهيري فردية، (Individual Mass Media)، يظل اتجاه نسق التغيير الاجتماعي غير واضح، ويصعب تحديد ملامحه بدقة، بل يحدث أن ينحرف عما هو متوقع مسبقاً كما حدث في تونس ومصر عند خلع الرئيسين بن علي ومبارك ... وتلك هي طبيعة الأنظمة الدينامية المركبة القابلة للفوضى“ . (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 41) .

ومنه نخلص إلى أن التواصل الاجتماعي في المجتمع الافتراضي يتم وفق نظام ”لا مجال فيه للضبط والسيطرة، ولا مجال كذلك لليقين (Certitude) بالمعنى الرياضي، بل يظل بعيداً عن السيطرة، ويبقى من الصعب التنبؤ بتغيراته واتجاهاته، ولا يمكن إلا أن يشكل نظاماً دينامياً مركباً (Chaotic System) تسكنه الفوضى“ (عبد الله الزين الحيدري، 2010، ص 41).

والتساؤل الذي نثيرها في ذات السياق يتحدد في أشكال حضور نظرية الفوضى الخلاقة إعلاميا وسياسيا بالمنطقة العربية، خاصة مع موجات التغيير التي اجتاحت العديد منها أو ما يطلق عليه بالربيع العربي، بمعنى آخر هل يمكن تفسير تلك الوقائع بداية من ثورة تونس وما تلاها من ثورات وتغييرات إلى إرادة داخلية؟ رافضة للفساد السياسي والعوز الاقتصادي والاحتقان الاجتماعي، أم إلى إرادة خارجية؟ من خلال تدخل أجنبي متناهي في الخفاء والدهاء، متمثلة في خفقة جناح الفراشة وجهت صوب المنطقة العربية، من اجل خلق فوضى عارمة يستتبعها نظام مهيكّل وفق تصاميم ومقاييس الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل

المحور الثاني: تشظي التواصل الاجتماعي في الفضاء الافتراضي:

1- نحو فهم نظرية التشظي:

أدى ظهور العديد من النظريات الفيزيائية والطبيعية المفسرة للظواهر الكونية منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى قلب مفاهيم عدة غيرت من وعي الإنسان بذاته أولا ثم بعالمه الخارجي أيضا حيث قدمت تفسيرات أكثر عمقا وجذرية بل تجاوزت تساؤلاته الانطولوجية حول مركز الكون هل الإنسان أم الطبيعة إلى أسئلة تتمحور حول طبيعة العالم المادي المكون من جزيئات لامتناهية وظواهر متناثرة من قبيل كيف يكون هناك ثبات داخل الإطار المادي والمادة متحركة وهل يمكن أن يكون هناك معنى للكون والمادة في حركة بلا قصد أو معنى.

إن توالي هذه النظريات العلمية كمنظريّة داروين التي أثبتت أن الطبيعة في حالة صراع دائم يحكمها منطق القوة إلى جانب نظرية النسبية لأينشتاين التي أكدت استحالة رصد الواقع الموضوعي واستحالة تجاوزه يدفعنا إلى القول بان الطبيعة بدأت في الاختفاء كميّارية ومرجعية وككل ثابت متجاوز فأصبح كل شيء مرجعية ذاته وهذا ما أدى إلى تشظي الكون وتحوله إلى ذرات حيث أن العالم لا مركز له أو متعدد المراكز يتسم بعدم وجود حقيقة أو بتعدد الحقائق وعدم وجود مطلق أو بتعدد المطلقات (عبد الوهاب المسيري ، 1999 ، ص 310) .

فالعالم المادي في حركة دائمة وتغير دائم فالتغير صفة ثابتة لعالمنا سجن المكان والزمان وأسقط الطبيعة نفسها في قبضة الصيرورة فصرنا نؤمن بوجود الكل الواحد ضمن عدد لامتناهي من الذرات ولعل ما أثبتته الفيزياء الذرية يوضح بشكل جلي أن وجود الذرة ليس في وحدتها بل في ترابط جزيئاتها وأن قوتها في تشظيها وانشطارتها إلى جزيئات متناهية في الصغر .

إن العلوم الطبيعية في نظرياتها الحديثة صارت لا تنظر إلى الواقع كوحدة وثبات بل إلى صيرورة وتشظ لأبعاده المكونة فالمكان بعدما كان ينظر إليه كفضاء ثابت صار مع نسبية انشستين مثلا لا سبيل لمعرفة المكان المطلق وإنما نحن في أحسن الأحوال نقدر موضعه النسبي بالنسبة إلى متغير آخر مادام الكل في حركة (مصطفى محمود، انشستين والنظرية النسبية، 2007، ص 34) إلى جانب استحالة إدراك الحركة المطلقة لجسم يتحرك بانتظام وبالمثل إدراك سكونه المطلق. والأمر نفسه إذا ما تحدثنا عن الزمان اعتبارا لكونه تعبير عن انتقالات رمزية في المكان على حد تعبير ألبير اينشتاين لذا يكون الزمن لا معنى له إذا لم ينسب إلى النظام الذي اشتق منه . (مصطفى محمود، انشستين والنظرية النسبية، 2007، ص 34).

نخلص إلى أن بوصلة العالم المادي لا تستطيع أن تدرك هذا التشظي في الكون فلا يمكنها إذن أن تحدد الوضع الزماني والمكاني للحوادث من حيث التوالي أو المعية وكذا من حيث الامتداد أو النهاية فإذا كان الحال على ما هو عليه بالنسبة للواقع الملموس فما هو الحال بالنسبة للمكان الافتراضي المتميز عن العالم الحقيقي، حيث عالم الإنترنت وتعدد شبكات التواصل الاجتماعي فما هي إذن معالم وجغرافية هذا المكان الافتراضي الذي يمثل على حد تعبير هابرماس الفضاء الثالث بعد الفضاء العام والخاص وهل يمكن النظر إليه كمجال يتصف بالوحدة والثبات أم وفق نظرية التشظي التي نسعى من خلالها الوصول إلى إدراك نسبي لمعالم هذا الفضاء الافتراضي وكذا ملازمة طبيعة التواصل القائم في هذا المجتمع الافتراضي خاصة مع سقوط النظريات الكلاسيكية المؤطرة للعملية التواصلية أمام ثورة الاتصالات الحديثة.

2- ملامح التشظي في التواصل الافتراضي:

مع ثورة الاتصالات الحديثة، وظهور شبكات التواصل الاجتماعي أو ما صار يعرف بالإعلام الجديد في مقابل الإعلام التقليدي الذي عرف تغييرات جذرية خاصة في سيرورته التواصلية أدى إلى تشظي مكوناته وأبعاده بل أيضا اتجاهاته وغاياته الأمر الذي مهد لسقوط العديد من النظريات التواصلية الكلاسيكية وتجاوزها وسنكشف عن ملامح هذا التشظي في معرض حديثنا عن نظريتي حارس البوابة وفجوة المعرفة حيث تخطى التواصل الافتراضي سلطة الرقابة إلى التحرر من كل دوائر التحكم كما كسر في الآن ذاته الاستحواذ المعلوماتي الذي كان حكرا على النخب الحاكمة والطبقة الأرستقراطية معلنا تشظي سلطة المعرفة.

❖ تشظي سلطة المعرفة:

إذا كانت نظرية فجوة المعرفة تشير إلى أن تدفق وامتلاك المعلومات من وسائل الإعلام داخل النظام الاجتماعي يؤدي إلى جعل فئات الجمهور ذوي المستوى الاقتصادي الاجتماعي المرتفع يكتسبون هذه المعلومات بمعدلات أسرع من الفئات ذوي المستوى الاقتصادي الاجتماعي المنخفض وبالتالي تتجه فجوة المعرفة بين فئات الجمهور المختلفة إلى الزيادة

بدلا من النقصان (حسن عماد مكاوي، ليلي حسين السيد، 2008، ص 339) فالمستوى الاقتصادي والاجتماعي للنخب الحاكمة والسياسية إلى جانب كبار الرأسماليين مكنهم من امتلاك قوة المعلومات واحتكار المعرفة إلا أن الثورة التكنولوجية مكنت عموم الأفراد من تشطي المعرفة وامتلاكها حيث استطاع عموم مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي داخل المجتمع الافتراضي من تجميع المعلومات، وتحليلها، ثم إعادة إخراجها وتوزيعها كما استطاع أيضا التغلب على المسافات والوقت وكسر الحواجز والطبقات الاجتماعية والاقتصادية وسهل القيام بجملات مضادة للحكومات، من خلال تعبئة أكبر عدد من الأفراد المهتمين ضد المشاريع المبرمجة فالتواصل الافتراضي مثلا عبر المدونات أتاح للفرد العادي المستخدم للإنترنت أن يكون صحفيا وكاتبًا ومنتجًا للمعلومات وقادرا على إسماع صوته للآخرين متجاوزا قيود وموانع الوسائل التقليدية بل صار ناقدا ومشاركا، يحلل ويوازن، ويشارك بالأفكار والأخبار من خلال تداول المعلومات ونقد الحقائق وتمحيصها والخروج بقرارات وتوجهات غالبا ما تؤثر في توجهات المسؤولين وأصحاب القرار في الواقع الحقيقي

❖ تشطي سلطة الرقابة:

يحصر نيغروبونتي Negroponte جملة من الميزات التي تتحلّى بها شبكات التواصل الاجتماعي منها : "استبداله الوحدات المادية بالرقمية، وتشبيك عدد غير محدود من الأجهزة مع بعضها البعض إلا أن والميزة الأكثر أهمية، هي أن هذا التواصل داخل هذه الشبكات خرج من أسر السلطة التي كانت تتمثل في قادة المجتمع والدولة إلى أيدي الناس جميعا" (عباس مصطفى صادق، 2011م، ص9) ، فالثورة الإعلامية التي شكلتها الشبكات الإلكترونية أسقطت عدة نظريات كلاسيكية كنظرية "حارس البوابة" المعروفة في الإعلام، التي ترى أن الرحلة التي تقطعها المادة الإعلامية نحو الجمهور المستهدف توجد نقاط (بوابات) تشبه حواجز التفتيش ، و في هذه النقاط يتم إصدار التصريحات أي تقرير ما يمر وما لا يمر من الأخبار والمعلومات ، ويسمى الأفراد الذين يقفون عليها " حراس البوابة " (حسن عماد مكاوي، ليلي حسين السيد، 2008، ص 339)، لهم سلطة تقييم محتوى الإعلام لتحديد علاقته وقيّمته بالنسبة لجمهور المتلقين، وبالتالي تقرير الموضوعات التي تنشر أو التي ينبغي إعادة صياغتها بصورة معينة أو تلك التي يجب إهمالها فالقائم على الاتصال في المجتمعات الافتراضية قد تحرر من مقص الرقيب بل حطم حاجز الخوف وأصبح يفكر بصوت عال دون الاختباء خلف أسماء مستعارة خشية الملاحقة والاعتقال.

ولعل أحداث الربيع العربي التي عصفت بعدة بلدان عربية خاصة تونس ومصر كان من بين أهم عواملها هو التمرد على هذه الأنظمة من خلال التواصل في الفضاءات الافتراضية التي أتاحت للمواطن الكثير من حرية الرأي والتعبير للشباب في ظل عجز وسائل الإعلام التقليدية.

وتأسيساً على ما تقدم، فإن التواصل الافتراضي أعلن تشظي اللغة السلطوية وأهيار الخطاب الرسمي الواحد بل صار لا يعترف إلا بلغة الحوار وفق مبدأ المرونة والتفاعل، بعيداً عن أنظار الرقابة، وهكذا اضمحلت صورة السياسي إذ لم يعد هناك حاجة إلى شخصية كاريزماتية فريدة لتعبئة الحشود وتنظيمها، كما تأكلت تدريجياً، سلطة الحاكم الذي كان يحتكر الثروة والسلاح والمعلومات ويوظفها، وفقاً لمصالحه ورغباته وأهدافه. نحن إذن، أمام عالم آخر افتراضي مواز للعالم الحقيقي يضم فضاءات رحبة مفتوحة للتمرد والثورة بداية من التمرد على الخجل والانطواء وانتهاء بالثورة على الأنظمة السياسية مما أدى إلى إعادة هندسة المشهد السياسي، وتشظي الحواجز بين النخبة السياسية والمواطنين.

خاتمة

نخلص ختاماً إلى أن الرأسمال الاجتماعي الافتراضي أدى إلى تشكل معالم جديدة لهذا المجتمع فقد افترز أنماط تواصلية جديدة اتسمت بدينامية متقلبة ومتسارعة بل اتصفت بالتعميد والاضطراب، محدثة فوضى خلاقية يصعب معها معرفة مدى تأثير الرسائل المتداولة على المتلقي بل يستعصى التنبؤ بإرجاع الصدى كما اتسمت أيضاً إلى جانب الفوضى بتشظي سلطة القائم بالاتصال بهذا الفضاء التواصلي سواء تعلق الأمر بسلطة المعرفة أو سلطة الرقابة حيث سقط حارس البوابة متيحاً للنشطاء الافتراضيين امتلاك المعرفة بشكل علني وتداول المعلومة بشكل تخفي الحدود الجغرافية والمحددات الزمانية معلناً عن نهاية فوييا المكان والزمان.

قائمة المراجع:

1. المعجم الفلسفي، (القاهرة: دار الكتاب، 1979).
2. أسماء نيازي طاهر، نظرية الفوضى وتوليد الشكل المعماري، (مصر: مجلة الهندسة، العدد 1، المجلد 16، 2010).
3. جايمس غليك، نظرية الفوضى والعلم اللا متوقع، ترجمة احمد مغربي، (بيروت: دار الساقى، ط 1، 2008).
4. حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد الاتصال ونظرياته المعاصرة (الدار المصرية اللبنانية، ط 7، 2008).
5. صادق الحمامي، الاعلام الجديد مقارنة تواصلية، (تونس: مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، عدد 4، 2006).
6. عباس مصطفى صادق، "الإعلام الجديد: دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة"، (البوابة العربية لعلوم الإعلام والاتصال، 2011).
7. عبد الله الزين الحيدري، الإعلام الجديد النظام والفوضى، (تونس: المجلة العربية للاتصال والإعلام، عدد 6، 2010).
8. عبد الوهاب المسيري موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (المجلد 1، ط 1، 1999).
9. علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي مقارنة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008).
10. مصطفى محمود (انشتاين والنظرية النسبية، دار المعارف، ط 2007، 1).
11. A.Beghetto Ronald .virtually in the middle Avenues For parental involvement in Middle Levels Schools (The Clearing House, Vol 57, ISSUE 1, Published by: Taylor & Francis, sep.oct .2001).
12. Cornich EF ,The exploration of the future , (USA ,the Word future Society ,1ST ed ,Inc 2007)
13. Eijnatten .F M.Van. Chaos and complexity An Overview of the New Science in organizaion and Management) Revue Science De Gestion, vol 40 ,English Edition,1 Fsbruary 2004, .
14. Mathewj Smith. Community Building Strategies in online fanzines, (journal of culture ,vol 33, issue 2. 1999).
15. Michael Buhler Schemas d'études et modèles de communication (communication et langages, N24,1974)
16. Putnam R.D. , Bowling Alone: America 's Declining Social Capital,(Journal of Democracy, vol 6,N1,January 1995).